مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

العدد الحادي عشر مجلة اسلامية . ثقافية . تصدر سنويًا

1423 من ميلاد الرسول ﷺ الموافق 1994 ميلادية

جوزيف شاخت (*)

1902 - 1969

بقلم: برنارد لويس

ترجمة: الصديق بشير نصر

ولد جوزيف شاخت في راتيبور في الخامس عشر من مارس سنة 1902 م، وكانت تقع في صعيد سيلسيا، وهي الآن من أعمال بولندا. وفي تلك المدينة التحق بالثانوية الألمانية وفيها اكتسب اهتمامه الأول باللغات الشرقية.

وفي الفترة المخصصة للدراسات الدينية جاء الحاخامات اليهود لتعليم اللغة العبرية للأولاد اليهود، وعلى الرغم من أنّ شاخت الصغير لم يكن منهم فقد تهيأ لاستكمال واجباته الأخرى فقُبِل في هذه المجموعة حين تلقى دروسه الأولى في العبرية.

ودرس بعد ذلك اللغات القديمة ثم علوم اللغات الشرقية في جامعتي برسلو ولايبتزج وفي عام 1925 تحصل على أول وظيفة له بجامعة فرايبورج.

(*) نقلاً عن: (مجلة معهد الدراسات الشرقية والأفريقية بلندن/ العدد 33 سنة 1970).

وبعد سنتين عيّن أستاذاً مساعداً، وفي سنة 1929 عين أستاذاً للغات الشرقية وعمره سبعة وعشرون عاماً ولم يكن ذلك معهوداً قبله.

وفي سنة 1932 دعي لشغل كرسي اللغات الشرقية بجامعة كونجسبرج. ولكن عمله الفعلي بهذا المنصب لم يدم طويلاً بسبب التغيرات السياسية في ألمانيا.

وعلى الرغم من أنه لم يتعرّض للمضايقات العرقية والسياسات عزم على مغادرة ألمانيا عندما استولى النازيون على السلطة.

وفيما بين عام 1926 وعام 1933 كان قد تجوّل كثيراً في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وفي عام 1930 عَمِل أستاذاً زائراً فيما عرف وقتئذ بالجامعة المصرية بالقاهرة. وفي سنة 1934 أخذ إجازة من جامعة كونجسبرج ورجع إلى جامعة القاهرة أستاذاً حتى سنة 1939.

وبعد نشوب الحرب انتقل إلى إنجلترا حيث عمل مع هيئة الإذاعة البريطانية BBC ووزارة الإعلام الإنجليزية طوال سني الحرب. وفي سنة 1947 أصبح بشكل طبيعي أحد الرعايا الإنجليز.

وفي عام 1946 عُيّن في وظيفة تعليمية بجامعة أوكسفورد بدرجة محاضر، وفي سنة 1948 عين مساعد أستاذ في الدراسات الإسلامية.

وفي أثناء وجوده بأكسفورد قام بعدد من الرحلات إلى الخارج، منها جولة علمية إلى الولايات المتحدة سنة 1948، ومهمة دراسية إلى نيجيريا سنة 1950، كما عمل أستاذاً زائراً بجامعة الجزائر سنة 1952، وقام بمهمة دراسية في الشرق الأدنى وشرق أفريقيا سنة 1953.

وفي سنة 1954 غادر إنجلترا إلى هولندا ليشغل كرسي اللغة العربية بجامعة لايدن التي عرفت لزمن طويل بشهرتها في هذا المجال بين الجامعات. ومع ذلك كانت إقامته في هولندا قصيرة. وفي العام الدراسي 1957 ـ 1958 ذهب أستاذاً زائراً إلى جامعة كولومبيا.

وفي سنة 1959 تحوّل هناك إلى أستاذ منتظم للغة العربية والدراسات

الإسلامية وظلّ هناك حتى تقاعد سنة 1969.

وقد قام برحلات علمية أخرى في شرق أفريقيا في سنة 1963 وفي سنة 1964. وكان عضواً بكوجنهايم في سنة 1967. ومات في إنجلوود بنيوجرسي في أول أغسطس سنة 1969.

وكان الفقه الإسلامي هو الحقل الدراسي الأول الذي انصرف إليه شاخت بكل همّته، وبقي واحداً من أهم اهتماماته الأساسية حتى قضى نحبه.

وعلى خلاف أكثر العلماء المشتغلين في هذا المجال، فإن نظرية شاخت لم تكن لاهوتية ولم تكن تشريعية، ولكنها كانت إلى حدٍّ ما تاريخية واجتماعية. أيّ إنّه كان مهتماً بشريعة الإسلام المقدّسة لا لكونها منهجاً مثالياً أو نظرياً، ولكن لكونها تولدت في البلاد الإسلامية وطبقت فيها.

وكان أوّلُ موضوع طرقه موضوعَ الحيل الشرعية المقبولة والمردودة التي تجاز بها المعاملات التي لا تطولها الشريعة أو حتى التي تتناقض معها فتكون مقبولةً باسم الشريعة من خلال تطبيق الوسائل الشرعية من أجل أغراض دينية زائدة.

وفي سنة 1923 وسنة 1924 نشر شاخت أشهر كتابين يتعلّقان بموضوع الحيل.

وفي سنة 1926 نشر في مجلة Der Islam (العدد رقم 15) مقالة بعنوان: Die arabishe hijial literatur.

وقد تطور هذا الموضوع بعد ذلك في كتاباته اللاحقة وأصبح شائعاً في جميع الأعمال الجادّة التي كتبت بعده في تاريخ الفقه الإسلامي.

ولمّا كانت الحيل قد استغلّت بشكل واسع في الأمور التجارية، فقد ساهمت آراء شاخت مساهمة فعّالة في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للإسلام.

وبعد إقامته الأولى في مصر قادته اهتماماته بالفقه الإسلامي إلى دراسة مشكلة مهمة غير معروفة بالفعل في الدراسة الغربية، وهي تطبيق الشريعة في

الدُول الإسلامية الحديثة. وفي مقالته الرائدة (الشريعة والقانون في مصر الحديثة) المنشورة بمجلة Der Islam (العدد 20 سنة 1932) حلل بالتفصيل ظاهرة تحديث الشريعة الإسلامية في مقابل الأسس المنهجية والتاريخية معاً، وقد ظهرت لها ترجمة مختصرة بالفرنسية سنة 1949 لا تزال محل نقاش حتى اليوم. وبذلك استطاعت هذه الدراسات أن تبني أساس جميع الدراسات اللاحقة التي تعاملت مع هذا الموضوع المهم.

ومن الموضوعات التي كتبت فيها كتابة رائدة، موضوع التأثير الأجنبي في الفقه الإسلامي. وقد لمّح إلى شيء من هذا في مقالاته الأولى، ثم بَحَثَه بالتفصيل في دراسته المنشورة بمجلة الفقه المقارن (3/ 32/ 1950) تحت عنوان: (العناصر الأجنبية في الفقه الإسلامي القديم) وقد أعيد نشرها في أعمال (الأكاديمية الدولية للفقه المقارن ـ روما 3/ 4/ 1955) مع بعض الإضافات عليها، ثم ضمها إلى بحثه (الفقه البيزنطي والفقه الإسلامي) المنشور في Convegno Volta (رقم 12.1957، روما، 197.230).

وقد ابتدأت الدراسات السوسيولوجية للفقه الإسلامي باصطلاحات أكثر عموماً ونظريةً ببحثه المنشور في مجلة Der Islam، العدد 22 سنة 1935 تحت عنوان: 'Zur Soziologischen Betrachtung des islamischen Rechts' ثم تتابع في مقالات أخرى.

وفي تلك الغضون واصل شاخت دراساته حول أصول الفقه الإسلامي إبّان القرون الأولى. وقد أظهر عددٌ من المقالات التي كتبها الاتجاه الذي سلكه في بحوثه، لا سيما مقالته عن: (إعادة تقويم الأحاديث النبوية) المنشورة في مجلة الجمعية الأسيوية الملكية سنة 1949، ثم توِّجت أعماله تلك بنشر كتابه (أصول الفقه المحمّدي) بأكسفورد سنة 1950، وقد صدرت منه طبعات كثيرة متلاحقة كانت آخرها الطبعة الرابعة الصادرة في سنة 1967.

وفي هذا العمل يواصل شاخت عَمَلَ سلفيه العظيمين جولد تسيهر وسنوك هرخرونه فيضع جميع الآثار الحديثية والفقهية المبكّرة في ميزان نقدي دقيق.

ويقع كتاب شاخت هذا من ناحية أساسية في بابين[1]. الأول تقديم تفسير جديد لبحوث أجنتس جولدتسهير. وقد أظهرت هذه البحوث الرائعة والعميقة عن الحديث، منذ الوهلة الأولى، أن هذه الأحاديث التي تدور حول النبي وأصحابه لم تعكس ظروف وملابسات الزمان الذي نسبت إليه، ولكن عكست ظروف الفترة الزمنية التي اخترع فيها، وأنها كانت تعبيراً عن الآراء السائدة في الدوائر المختلفة وتأييداً لها بعد وفاة النبي في القرنين الأولين ومنتصف القرن الثالث.

وعلى الرغم من التملق لعبقرية جولدتسيهر فقد أُهملت في الغالب نتائج بحثه، واتّبع في دراسة الفقه والتاريخ الإسلامي المبكرين سبيلاً غير ذلك، كما لو أن وجهة النظر القديمة التي هدمها جولدتسيهر لا تزال قائمة. وقد جاء في عبارة لشاخت: «إنَّ العمل التخميني الاعتباطي الذي يعرف أحياناً بالحدس التاريخي أخذ يحل محلَّ النقدَ التاريخي الصحيح». وبذلك أصبحت أصالة وصحة المقدار الهائل من المادة الحديثية مقبولة ضمناً وصراحة.

وباستثناء عملٍ مهجور قام به مرجوليوث، ونشره سنة 1914، فإنّ شاخت يُعَدُّ أوَّلَ من استأنف الدراسة النقدية للحديث، وعلى وجه الخصوص الإسناد. وتابعه في أكثر صوره اضطراباً، وفسّر مضامين هذا النقد بشواهد فقهية وكلامية وكذلك بشواهد تاريخية، وكثير منها كما بيّن فقهية في أصلها وغرضها.

ولمواصلة عمل جولدتسيهر شرع شاخت في استكمال ما حاوله جولدتسيهر بصعوبة لتشييد بنية جديدة بدلاً من تلك التي انهدمت.

ويفضح شاخت في دراساته للتراث الفقهي القديم، ولا سيما مناظرات الشافعي لأسلافه نوعين من الأخبار الزائفة، التي تشوِّه التاريخ المبكر للفقه الإسلامي، ثم طفق يبيّن كيف فُهِم أخيراً التطور التاريخي الحقيقي للفقه الإسلامي في الجيل الذي عُرِف بالتابعين، وكيف اتّبع علماء الدين المتقدمون

(1) ويقع فعلياً في أربعة أبواب [المترجم].

وأتباعهم عند نهاية القرن الأولى للعصر الإسلامي أسلوباً أضفوا به شكلاً دينياً وأخلاقياً على مجموعة من السوابق الفقهية المتباينة، والقواعد والتطبيقات المختلفة، ثم تحويلها إلى مجموعة الفقه الإسلامي.

وقد هزّت اكتشافاته معرفَتَنا بالتاريخ المبكر للفقه الإسلامي، والعقيدة الإسلامية، والأدب الإسلامي وكذلك المجتمع الإسلامي أيضاً.

وقد قام بإجراء دراسة مختصرة ولكنها شاملة تضمّنت نتائج بحوثه في الفقه الإسلامي عند المتقدمين والمتأخرين على السواء، كانت في الأصل محاضرات ألقاها بجامعة الجزائر، وقد نشرت لها في باريس سنة 1953 ترجمة بالفرنسية تحت عنوان: (مدخل إلى تاريخ الفقه الإسلامي).

ثم ظهرت في طبعة إنجليزية مزيدة ومنقّحة سنة 1964 بأكسفورد تحت عنوان: (مدخل إلى الفقه الإسلامي)، وصدرت الطبعة الثانية منها سنة 1966.

وبصرف النظر عن الفقه الإسلامي، فإن لشاخت اهتماماتٍ متعدّدة شملت جميع مجالات العلوم الإسلامية. ففضلاً عن دراسة المخطوطات العربية ونشرها فقد أعدّ مقالات تتعلق بموضوعات متباينة تباين الإسلام في شرق أفريقيا وغربها، ومنها مقالته عن (تاريخ المنبر) و(أباضية وادي ميزاب) بشمال أفريقيا، بالإضافة إلى موضوعات عديدة أخرى في مجال العقيدة الإسلامية.

وكان آخر أعماله بالاشتراك مع ماكس مايرهوف طبع كتاب ابن النفيس مع مقدمة له وترجمة وتعليقات عليه.

كما ستصدر له قريباً طبعة جديدة من كتاب (تراث الإسلام) الذي سبق نشره.

وفضلاً عن كونه أستاذاً وباحثاً كانت له مساهمة مهمة في التطور العام لموضوعه.

وقد شارك في تأسيس وتحرير مجلة (الدراسات الإسلامية) مع الأستاذ روبرت برو نشفيج بباريس، كما كان أيضاً أحد محرري دائرة المعارف

الإسلامية في طبعتها الجديدة التي بدأ صدورها في سنة 1954. وقد كسبت هذه الموسوعة في تطوّرها المطرد والمتناسق خلال السنوات الثلاث عشرة الأخيرة شيئاً كثيراً بفعل رئاسته وأستاذيته وإخلاصه وتفانيه.

وتحصّل على درجة الدكتوراه الشرفية من جامعة الجزائر سن 1953، وانتخب عضواً بمجمع اللغة العربية بدمشق سنة 1954، وعضواً بالأكاديمية الهولندية الملكية سنة 1956.

وفي سنة 1969 منح جائزة جوجيو ليڤي ڤيدا في الدراسات الإسلامية من جامعة كاليفورنيا. ومن مناقب هذا الرجل بِرّه بشيوخه، إذ اعتنى عناية بالغة بنشر مخطوط ناقص لأستاذه ج. برجشتراس بعنوان: Grundzüge des islamischen Rechtes، وطبع في لايبتزج سنة 1935.

وقام بالاشتراك مع ج. هـ. بوسكويث بانتخاب أعمال سنوك هرخرونه وترجمتها وطبعها سنة 1957.

لقد كان ذا معرفة ممتازة، وولع بالدقائق الفيلولوجية، وفي الوقت نفسه اتسم عملهُ بالعمق والأصالة والخيال المنضبط، الذي يستطيع وحده رفع المعرفة من مستوى الاهتمام بالآثار الماضية إلى مستوى الإنجاز الخلاّق المبدع.

وعلى الرَّغم من كونه فيلولوجياً من الطراز الكلاسيكي إلاّ أنّه كان على صلة بالاتجاهات الحديثة للفكر الاجتماعي.

فدراساته في سوسيولوجيا الفقه الإسلامي مثلاً تنبىء بصلة وثيقة بالمفاهيم والطرق الاجتماعية الحديثة، ويجب أن تصنَّف في عداد أشهر أعمالنا الحاضرة في مجال تطبيق مناهج علم الاجتماع على الإسلام.

وهو في حياته الخاصة، كما في حياته العلمية، كاملُ الاستقامة عنيد متصلِّب.

ولأسباب أخلاقية غادر ألمانيا عندما تسلَّم النازيون السلطة فيها، ولم يعد أبداً إلى مسقط رأسه، ولم يكتب ـ عندئذ ـ بلغته الأم. وقد طبق على

نفسه معايير صارمة وتوقعها كذلك من غيره.

وعلى الرَّغم من أن للبشر ضروباً كثيرة من الغواية والشهوات تطرح نفسها أمام العالم، لا سيما تلك التي توحي له بمعرفة علم لا حظ له فيه، أو تعظّم له من الأعمال ما يعلم أنه من توافه الأمور أو تذمه له، فإن شاخت لم يقع في حبائلها، بل كان متواضعاً وحاسماً في الموضوعات العلمية معاً، صادقاً نزيهاً في كل الأمور، عاجزاً عن ممارسة أدنى مراتب الرياء الاجتماعي، التي تتطلبها الحياة الشخصية والأكاديمية. وربما كان هذا هو السبب في صعوبة التعامل معه، فقد يسيء المرء مرةً أو يستاء من حيث لا يقصد، وبرهان ذلك أولئك المحظوظون الذين تمتعوا بصداقته واحترامه. وهو إذا صادق مرةً كانت صداقته كاملة ودائمة.

ويكمن وراء هذا الوجه المتجهم إنسان في غاية اللطف والرقة والدماثة والإخلاص. لقد ترك بموته فراغاً في الدراسات العربية والإسلامية لا يمكن أن يُسَدَّ، ولعله لا يمكن ذلك أبداً. وسوف يندبه بحرقة أولئك الذين عرفوه بحقّ زميلاً وصديقاً وإنساناً.